الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بعض ما علمتني الأيام — الشيخ عباس الجمل — فكاهة سياسية — كاريكاتور طريف — جناية الكتابة على الشعر والخطابة — كيف نعامل رجال الوعظ والارشاد

بعض ما علمتني الأيام

تلقيت عن الأيام دروساً تفوق العدّ والإحصاء، وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس ... وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك لصرتُ أحكم الحكماء، فلي من الدهر في كل يوم درسٌ جديد، مع الوعي الصحيح لما أسمع من دروس الزمان

ولكني مع ذلك انتفعت بدرس واحد، وأحب أن ينتفع به قرائي، فما هذا الدرس؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبداً في الشؤون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية في بعض الأحايين، لأني أعرف أن التزيد والتحريف صارا من عيوب بني آدم في هذه الأيام، ولا يجوز التهاون بمخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء، لأن حظهم من صدق الرواية صار غاية في التفاهة والهزال

وذلك هو السر في إقلالي من غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامي بالنفرة من بني آدم وإيثار العزلة والانفراد، مع أني في حقيقة الأمر رجلٌ ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلباً للسلامة من التزيد والافتراء

فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذي أنصح به قرائي؟

أنا أرى أن تخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات، أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأياً إلا وهو نصٌّ مكتوب يعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء

إن النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريف المغرضين، فكيف يسلم الكلام المرسل في أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟

إن التحريف الذي ابتُليتُ به آرائي المدوّنة في مقالاتي ومؤلفاتي قد آذاني، فكيف يكون حالي لو أرسلت نفسي على سجيتها وحدثت الناس بما أراه في الأدب والحياة؟

من الجريمة أن تحدّث الناس في شؤون يُخاف عليها من التحريف، ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يرسل غير لفظ وصفه القدماء بأنه عَرَضٌ سيّال؟

يجب أن يكون القلم أداة التعبير في دقائق الشؤون، لأنه يحدد أغراضنا تحديداً يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف

أقلّوا من أحاديث المجالس، يا قرائي، لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحد بالناس في غير حذر ولا احتراس إلا سقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع في الخطيئة العميمة وهي اليأس من الثقة بإخوان الزمان

ما الموجب للثرثرة في الأندية والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات ما يتسع لنشر ما نريد من الأفكار والآراء؟

إرحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدُر عنكم، واعرفوا جيداً أن المبادئ لا تُخدَم بالقيل والقال بين أجواف الجدران، وإنما تُخدَم المبادئ بالقول الصريح الذي يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المِراض

ثم ماذا؟

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصي به نفسي، فأنا لا أقول كلمة في مجلس خاص إلا إذا عرفت أني أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئت لقلت بدون أن يكذّبني أحد المكابرين. إن لساني في غاية من التلطف والترفق، وإن اشتهر قلمي بالشطط والجموح، وما كان ذلك كذلك إلا لأني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد عليّ حاقدٌ إلا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء. أما إيذاء الناس في السر فلا أستطيعه أبداً، لأن الله تبارك أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب، فله الحمد وعليه الثناء

الشيخ عباس الجمل

من أفظع الشواهد على أن أدباء مصر لا يعطف بعضهم على بعض ، ولا يبكي أحدهم لكربة أخيه ، ولا يسأل عنه حين يغيب ، ولا يلتفت إليه إلا حين يسمع عَرَضاً أنه صار إلى بؤس أو نعيم ... من أفظع الشواهد على انعدام خلة الوفاء بين الأدباء المصريين أنهم لم يسمعوا أن الأستاذ عباس الجمل يعاني علة دامية — سينجو منها بإذن الله — وأنه كان يجب عليهم أن يواسوه في جميع الجرائد والمجلات بما يدفع عنه العلة والعناء ؛ فقد يكون في الكلمة الطيبة ما يزوّد الجسم بقوة المناعة ويقلّم أظفار الداء . ولكن أين من يفهم هذه المعاني ؟ !

يُجُم الشيخ عباس بمَوْرَق ابنه « ظاهر » وهو يقارع أمواج البحرين في دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته في ذلك الرزء الجليل !

وبُتِرت ساق الشيخ عباس منذ أسابيع ، فما بكى شاعر ، ولا تأثر كاتب لمصيبة الأديب الذي كانت مشيته في شوارع القاهرة أرشق من مشية الأسد المختال !

عباس الجمل في أحزان وكروب منذ خمس سنين ، فأين الكاتب الذي واساه ؟ وأين الشاعر الذي جعل بلاءه بالزمان موضوعاً لنشيد جميل يصوّر بلاء الرجال بالزمان ! !

شفاك الله يا صديقي ، وشفى من أجلك كل عليل ! !

فكاهة سياسية

كان الحزب السعدي دعا إلى إعلان الحرب على الطليان والألمان ، وهي الدعوة التي استوجبت إلقاء أطول خطبة سياسية في العهد الجديد ، وهي خطبة الدكتور أحمد ماهر باشا في مجلس النواب ، فقد استغرقت ست ساعات ، على نحو ما كانت تستغرق خطب سُحبان وهو يَهْدر بين السَّماطَين !

ولكن أنصار الحزب السعدي ليسوا جميعاً أعضاء في مجلس النواب ، فلا بد من خطيب يشرح لسائر الأنصار وجاهة القول بإعلان الحرب ، فكان الخطيب المختار هو الشيخ عباس الجمل ... وما كاد الشيخ يعتلي منصة الخطابة ، حتى عوّت صَفارة الإنذار فأجّل خطبته إلى أسبوع مُقبل ، ودار الأسبوع وجاء الشيخ يُلقي خطبته ، فعوّت صَفارة الإنذار من جديد !

وهنا قالت جريدة المصري : سترى كيف تُلاحقك الغارات يا شيخ عباس !

فأجابت جريدة الدستور : إن صحّ هذا النذير ، ففي مصر طابور خامس !

طريقة ظريف

نبغت الصحف المصرية في إبداع الصور الكاريكاتورية برغم ما يقع فيها أحياناً من سخافات ؛ ومن أبدع ما رأيت صورة نشرتها مجلة « الشعلة » لميزان يحمله رجل معصوب العينين باسم « الرأي العام » ، وقد رجحت كفة الوفديين على السعديين ، فابتهج النحاس باشا وقال : ما رأيك يا ماهر باشا ؟

فأجاب الدكتور ماهر : وما قيمة هذا الميزان وحامله رجلٌ من حزبك ؟ !

وإذا كان الرأي العام من حزب الوفد فقد انحل الإشكال !

في مصر اليوم أدبٌ سياسيٌ ، فأين من يقيّد الأوابد من ذلك الأدب الطريف ؟

جناية الكتابة على الشعر والخطابة

هي سجعة ذكرتني بالحوار المعروف :

— أجمل السجع ، ما خف على السمع

— مثل ماذا ؟

— مثل هذا !

ولكن كيف تجني الكتابة ، على الشعر والخطابة ؟

تأمل هذا التمهيد :

إذا كان عند أحد جيرانك طفل أخرس فلا تسمح لأطفالك بأن يلعبوا مع ذلك الطفل ، لأن طريقته في التفاهم ستروضهم على التعبير بالإشارات ، وعندئذ يقل فيهم الشوق إلى التعبير بالكلام ، فيحرمون أفضل النطق وهو أظهر الخصائص الإنسانية

وإذا رأيت الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني يطيل القول في انصرافه عن قرض الشعر فلا تصدق أنه حرم الشاعرية ، وإنما يرجع زهده في الشعر إلى أنه أكثر من التعبير عن أغراضه

بالإنشاء ، فقترت رغبته فى التعبير بالقصيد ، والمواهب يجنى بعضها على بعض

وأقوى البراهين عندى على أن الشريف الرضى ليس المنشئ لكتاب « نهج البلاغة » هو إمعان الشريف فى التعبير عن أغراضه بالشعر ، فديوانه من حيث الكم يزيد عن ديوان المتنبي بألوف من الأبيات الجياد ، وما أثر من الرسائل النثرية للشريف لا يشهد بأنه كان يشتهى التعبير عن ذات نفسه بالإنشاء

وكما تجنى الكتابة على الشاعر تجنى على الخطيب : لأن أعظم أسباب الإجادة فى أحد هذه الفنون هو الشوق إلى التعبير بإحدى أدوات هذه الفنون ، ومتى عبّر المفكر عن نفسه بالكتابة فقدَ الرغبة فى التعبير بطريقة ثانية وثالثة فصار أزهد الناس فى مقامات الخطباء والشعراء

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد الاعتذار عن نفسى ، فقد عاب على قوم أن أنصرف عن الشعر والخطابة ، وعدونى فى هذين الفنين من المتخلفين ، ولم أكن كذلك فيما سلف من الأيام ، فلى ديوان شعر ، وكنت فى الثورة المصرية من أعلام الخطباء ، ولم أزهد فى هذين الفنين إلا بعد اشتغالى بالتدريس والكتابة والتأليف ، فألفتُ التعبير بأسلوب يغاير أسلوب الشاعر وأسلوب الخطيب

وإذن فما هذا التحدى الذى يواجهنى به جماعة من أدباء الإسكندرية ؟

قال قائل منهم : إن الرجل الذى ودع بغداد بقصيدة بلغت ١١١ بيت هو الرجل الذى يخل على الإسكندرية الجريحة ببيت من الشعر أو ببيتين ! ؟

هو ذلك يا ندامى « الشعر الجميل »

ولو أنى فكرتُ فى مواساة الإسكندرية بالشعر قبل أن أواسيها بالنثر لأطلت فيها القصيد ، ولكنى عبرت عن أحزانى بالإنشاء ، فلم يبق لقرض الشعر محال ... ألم أقل لكم : إن المواهب يجنى بعضها على بعض ؟

وهل كان النثر الفنى إلا شعراً تحرر من القوافى والأوزان ؟

قولوا ما شئتم ، فلن تهمنى الألقاب الأدبية ، وإنما يهمنى أن أصدق فيما يصدر عن قلمى ، بغض النظر عن نوع الأداء

كيف نعامل رجال الوعظ والإرشاد

إلى الباحث المفضال « ا . ا » أوجه القول :

جاء فى خطابك أن واعظ مركز ..... آذاك بغير حق أمام أهل قريتك ، وفى بيت الله بعد صلاة الجمعة ، بألفاظ لا يليق صدورها عن الوعاظ

وفهمت من خطابك أن النزاع نشأ من الخلاف حول مسألة لم تتفق فيها أقوال الفقهاء

ومن حقى أن أوجه إليك هذه الأسئلة :

هل ترى من الخير أن نطالب الوعاظ بالخوض فى الدقائق الفقهية أمام جماهير لا يصح تعريضها لمشكلات تلك الدقائق ؟

وهل ترى من الذوق أن نحرج واعظاً هو ضيفك فى بلدك فنجره إلى مآزق تنتهى بكما إلى اللجاجة والعناد ؟

وهل ترى أن الوعاظ يعيّنون لإرشاد من يكون فى مثل علمك واطلاعك ؟

انظر فى هذه الأسئلة جيداً لتعفينى من نشر الكلمة التى تريد أن أوجهها باسمك إلى علماء الأزهر الشريف ، فما أحب أن أشجعك على مجادلة الوعاظ ، وهم قومٌ لا تباح لهم مجادلة الناس ، وإلا كثرت الشُّبه واندلع الصفاء بين أهالى البلاد .

وأنا بعد هذا أوصى نفسى وأوصيك بالنظر فى باب الرياء من كتاب الإحياء ، فإنى أخشى أن نقع فى مهلكات ، باسم الغيرة على الدين ، وهوى النفس له مسالك لا يفطن لها الرجال إلا فى أندر الأحيان

لطفَ الله بى وبك ، وهداك وهداك

زكى مبارك

إدارة البلديات — تنظيم

تقبل العطاءات لغاية ظهر ١٤/٨/٤١

ببلدية المحلة الكبرى عن توريد شعير

وتطلب الشروط منها مجاناً . ٨٤٣٨